عام الضباب والسحب غير الممطرة

محمود عبد المنعم مراد

هذا العام الجديد مغلف بالضباب ، تكاد تنعدم فيه الرؤية ، وتحجب عنه أشعة الشمس سحب وغيوم غير ممطرة ، لأنها لو أمطرت لعرفنا نهايتها ، وأدركنا ما اذا كان المطر يروى الأرض ويزيدها خضرة ، وينفع الناس أو كان سيلا دمارها يغرق المدن والقرى ويعطل الحياة ويعصف بالنبات والحيوان والانسان .

ولكنها غيوم تحجب النور والدفء ، ولا تعرف ماوراءها ، خيرا كان أم شرا . والكلام بطبيعة الحال عن عام العالم ، لا عن عام مصر ، وان كانت جزءا منه ، فإنها الجزء المشرق المستقر ، الذى تنظر فيه أمامك على الطريق ، متفائلا مطمئنا .

إنه عام النبوءات غير المأمونة ، والأحداث غير المتوقعة ، لأنها تتفاوت بين الركود والهدوء والاستقرار النسبى ، وبين ارتفاع الحرارة ، وعواقب المواجهة المباشرة وتغير موازين القوى ، وانتشار أوبئة الهيمنة والسطو والابتزاز والفوضى .

عام يريض أمامك الآن ساكنا كأنى الفول ، ولكنه يمكن أن يتحرك فى أى وقت ، لا برأس الانسان العاقل ، بل بجند الحيوان المفترس . وأيها وجهت بصرك حول خريطة الدنيا ، فسوف تجد فى كل قارة ، علامة استفهام كبيرة ، وتتساءل ما الذى يمكن أن يحدث ، ولا تستطيع أن تجد جوابا .

والصراعات الدولية لا يحكمها عامل واحد ، ولا حتى عدة عوامل يمكن حسابها ورصدها بأجهزة الرصد ، وآلات الحساب الإلكترونية . انها تتبع مؤثرات الاقتصاد والاجتماع والدين واللغة والتاريخ والجغرافيا وعلم الأجناس ، وعلوم أخرى كثيرة . فاذا أضفنا إلى ذلك ، جهلنا فى أوائل هذا العام بالذات ، باتجاهات وافكار وحظ الذين يملكون اتخاذ القرار فى الدول الكبرى ، أصبح الغموض مضاعفا . فحل رأس العالم الغربى رئيس جديد ، لم نعرف هويته السياسية بالدقة المطلوبة ، وفى مقابله أناس يجلسون فى مكاتبهم بالكرملين ، وراء أسوار معتمة ، ونوايا غير معلنة ، وقرارات تتخذ دون استشارة رأى عام ، بل تخليا عصبة قليلة العدد ، تتحين الفرص ، وتختار الأوقات والظروف المهيأة لاتخاذ القرار ، فتفاجئ به بقية العالم ، التى لا تدرى كيف يكون رد الفعل ، لأن الرد ينطوى على أخطار باهظة التكاليف ، والخيار بينها صعب قاس .

وهكذا تحيط الضباب والسحب السوداء بكل موقع ، فى أوروبا أزمة بولندا والطريق الذى يمكن أن تسير فيه ، وفى الشرق الأقصى مشكلات وحروب صغيرة وملايين المشردين واللاجئين ، وفى أفغانستان ، وما يمكن أن تسفر عنه المقاومة التى بدأت تنظم صفوفها ، وإن لم تكن تلك المؤازرة المرجوة ممن كانوا جديرين بتأييدها ، وعلى حدودها باكستان ، يتهددها الغزو السوفيتى ، وغوارها إيران ومشاكلها تستعصى على الحل ، وتتمرد على جميع التوقعات ، والحرب بينها وبين العراق ، لا تعرف هل انتهت أو لا تزال دائرة ، ودول الخليج كلها بدأت تضيق من شهر العسل مع أسعار البترول المرتفعة ، وبدأت تتبرك أن مناجم الذهب الأسود يمكن أن تتحول إلى قلب أحمر ، وفى أفريقيا حيث كانت مواطئ أقدام السوفييت ، بدأ الشغب واضحا فى التدخل الليبى فى تشاد ، وتحفز الدول المجاورة لها للحفاظ على الذات والبعد عن المخاطر .

أما عن الأحوال الاقتصادية للعالم ، فيمكنك أن تفكر كما تشاء ، ثم لا تعرف كيف يستطيع البشر أن ينجوا من نار التضخم والبطالة ومشكلات الطاقة ، وقلة الطعام مقابل الزيادة الرهيبة فى سكان كوكبنا المرهق . ولا يجدر بنا أن نقلل من أهمية الأخطار المحدقة بالاقتصاد العالمى فى هذه السنة ، ويكفى أن نضرب مثلا واحدا على التحولات الخطيرة التى بدأت تظهر أخيرا ، وفى ألمانيا الغربية بالذات حيث احتل ميزان المدفوعات احتلالا كبيرا ، وبلغ العجز فيه عام ١٩٨٠ عشرات البلايين من المارکات الألمانية ، وبدأ شبح الركود الاقتصادى والبطالة يفزع أولى الأمر هناك ، فى الدولة التى كانت مضرب المثل فى الرقى والتطور والغنى والاستقرار ، والوقوف موقف الصدارة بين القوى الصناعية الكبرى فى العالم . فما بالك بالحالة الاقتصادية فى إيطاليا أو تركيا أو غيرهما من الدول الأوربية دون حاجة إلى الحديث عن مشاكل العالم الثالث .

ولابد أن تتداعى المعانى والأفكار ، فتشير إلى موجات الارهاب والاجرام السياسى التى تفشت فى معظم أنحاء الدنيا وخاصة فى أوروبا الغربية . كيف يمكن أن نفسر هذه الظاهرة ، وكيف يمكن أن نتصور المستقبل الذى يمكن أن ينحدر إليه العالم المتحضر ، المجنون المتحرر ؟ فى كل يوم عشرات من القتل ، وعشرات أخرى من الانفجارات العنيفة التى تحطم الأبنية وتدمر المنشآت العامة والخاصة .

وفى عالمنا المحيط بنا والقريب لنا ، عالمنا العربى والإسلامى ، أوضاع يصعب فهمها ، بل يتعذر تصديقها ، وبالتالى ، لا يمكننا التنبؤ بما ستنتهى إليه الأمور فى هذا العام الغامض . كيف يمكن أن يصبح الأخوة العرب والمسلمون على هذه الدرجة من التناحر والتخاصم والتقاتل ؟ كيف ، ولماذا ، وإلى متى ؟ لا أحد يدرى !

الأزمة الإسرائيلية

ليس من الحكمة فى شىء أن نبالغ فى الاهتمام بما يجرى فى إسرائيل الآن ، من مشكلات وأزمات تكاد تعصف بحكومة مناحم بيجين . فالأمر أولا وأخيرا ، يتعلق بمشكلات داخلية ، كالأزمة الاقتصادية ، والتضخم الذى ضرب الرقم القياسى فى العالم كله ، والفساد الذى يكاد يحرجر معه وزير الداخلية يوسف بورج ، والخلاف فى الرأى بين وزير المالية ووزير التعليم ، والتنافس بين الأحزاب على تولى السلطة والزعامة .

ولا علاقة لنا كلنا كله ، بما نحن مهمومون به من مفاوضات الحكم الذاتى ، وسعيا لتمكين الفلسطينيين من الحصول على حقهم فى تقرير مصيرهم . وسواء كان بيجين فى الحكم ، أو فى خارجه ، وسواء جرت الانتخابات العامة فى مواعيدها المحددة ، أو قربتها الحوادث والأزمات ، وسواء أسفرت عن فوز بيريز وحزب العمل بحيث يستطيع وحده

شيمون بيريز

تشكيل الحكومة ، أو احتاج إلى حزب أو أحزاب أخرى تشارك معه فى الائتلاف الوزارى . فأغلب الظن أن المشكلة الفلسطينية لن تتأثر جذريا بأى تغيير يحدث فى مراكز السلطة الإسرائيلية ، فالخلاف بين بيجين وبيريز ، خلاف يمكن وصفه بأنه كمى لا نوعى ، بمعنى أننا يجب أن نقف موقف الحذر من المبالغة فى التفاؤل بمجئ حكومة إسرائيلية تكون أكثر اعتدالا وتفهما لموقف مصر والفلسطينيين من الحكومة الحالية . فالواقع الذى لا شك فيه أن الإسرائيليين كلهم سواء فى هذا الموضوع ، رغم الخلافات اليسيرة التى يمكن أن تبدو على السطح ، بين فريق وآخر .

ثم ان العبرة ليست بمن يحكم إسرائيل ، ولكنها فى الواقع بمن يواجه إسرائيل ، ويتصدى لها . ولو كان الفلسطينيون أكثر إيجابية وواقعية وتفهما لعالم نهاية القرن العشرين ، ولو كانوا متحررين من الضغوط الأجنبية التى تمارسها عليهم الدول المشايعة للاتحاد السوفيتى ، أو الدول الغنية التى تعطى بالملايين ، ولو كان العرب جميعا يقفون صفا واحدا فى مواجهة إسرائيل بعد أن كسبت مصر تأييد معظم دول العالم للقضية الفلسطينية خلال العامين الأخيرين ، لتغير الموقف ولاقتربنا من الحل الشامل العادل ، سواء كان بيجين فى الحكم ، أو كان غيره من الجماهم أو الصقور . ولكن « لو » هذه لا تفيد بشىء . كما أن الأزمة الوزارية الإسرائيلية لن تغير من الأمر شيئا . فلنخلف من اهتمامنا بما يجرى هناك ، لأن الحل غير مرهون به ، ولكنه مرهون بما نحن عليه ، نحن العرب بوجه عام والفلسطينيين على وجه الخصوص .

الإسكان والمرور

تابعت باهتمام تلك البيانات التى أفاضت الصحف فى الحديث عنها ،

يوسف جوهر

د. عبد الحميد يونس

والمتعلقة بمشكلة الإسكان، تلك المشكلة التي تأتي في مقدمة المشكلات التي نعاني منها، والتي حارت البرية في طرق اقتحامها وعلاجها، واختلفت بشأنها وجهات النظر، وتعددت الآراء والمقترحات.

وليس عندي اقتراح جديد أضيفه إلى عديد المقترحات التي أبداها الوزراء المسئولون والسادة أعضاء مجلس الشعب، والعدد الكبير من المختصين الذين يهتمون بهذا الموضوع.

ولكن عندي تساؤلا هاما أود لو ألقيت إليه الأضواء. هذا التساؤل هو: هل أخذنا في الاعتبار أن التوسع في إقامة الوحدات السكنية الجديدة بالقاهرة الكبرى، سوف يتبعه تفاقم لمشكلة أخرى هي مشكلة المرور، وبخاصة أننا نلاحظ ازديادا مستمرا في عدد السيارات الخاصة التي تختنق منها شوارع المدينة وضواحيها، بحيث أصبحت مشكلة المرور في القاهرة، لا تقل أهمية وخطورة عن مشكلة الإسكان أو غيرها من المشاكل؟

وهل فكر المسئولون في إصدار التشريعات الخاصة بالزام أصحاب العمارات الجديدة بإقامة الجراجات اللازمة لاستيعاب السيارات التي يملكها الساكنون الجدد، بعد أن ضاقت الشوارع بالسيارات الرابضة فيها طوال الليل، بالإضافة إلى مئات الألوف من السيارات التي تريد أن تتحرك في ساعات النهار فلا تجد لها متسعا؟

إن زيادة عدد الوحدات السكنية الجديدة، معناها زيادة العبء على كافة المرافق الأخرى، كالكهرباء والمياه والصرف الصحي وما إلى ذلك. ولكن مشكلة هذه المرافق يمكن حلها بجهد قليل أو كثير. أما المشكلة التي لا نعرف لها حلا، فهي مشكلة المرور وازدحام الشوارع بالسيارات. واقفة كانت أو متحركة في بطء وعسر، مستهلكة كثيرا من الوقود، مضيعة كثيرا من الوقت والجهد البشري بغير طائل.

وليس معنى هذا التساؤل أني أنادي بوقف اعمال البناء. ولكني كنت أود أن تقتصر اقامة الوحدات السكنية على المدن والتجمعات الجديدة، وعلى عواصم المحافظات والمدن المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد. من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. أما أن نشجع البناء في القاهرة، فمعناه أننا نزيد مشاكل العاصمة، وبخاصة مشكلة المرور. والأحرى بنا، إذا وجدنا قطعة أرض خالية في القاهرة، أن نحولها إلى موقف للسيارات، أو حديقة يتنفس فيها الناس المكتظة منازلهم، الضائقة صدورهم بقدر كبير من الدخان والتراب. ويكفي القاهرة ما فيها الآن من زحام، وعلينا أن نشجع البناء في مدن أخرى بعيدة عن العاصمة، ومن لا يجد له مسكنا هنا، فليطلب نقله إلى طنطا أو إلى أسيوط، إذا لم تعجبه مدينة ٦ أكتوبر، أو العاشر من رمضان! أما القاهرة فيكفيها ما تعانيه الآن من زحام يجعلها تكاد تنفجر!

هزيمة الإنسان

لم أشعر بضعف الإنسان وهزيمته أمام المخلوقات الأخرى، قدر ما شعرت بذلك في الأسبوع الماضي، حين داهمني الانفلونزا، البرازيلية أو الآسيوية، لا أدري، إن هذا «الفيروس» الضئيل الذي لا يرى بالعين، استطاع أن يلزمني الفراش، وأن يريني من العذاب ألوانا شتى، من قمة الرأس، حيث الصداع الذي لم ينفع فيه دواء، والتهاب العينين والأنف والحلق، مارا بالرئتين، حتى المعدة والأمعاء التي أخذت تعاني وتضطرب، وترفض الطعام والشراب، وتفقد المرء حاسة التذوق.

وسألت الأطباء فاجمعوا على أن الطب لم يستطع حتى اليوم أن يجد دواء لعلاج الانفلونزا، أو للوقاية قبل وقوعها. وما على المريض إلا أن يركن إلى الراحة التامة، ليستطيع أن يقاوم جسده المرض ومضاعفاته. وهكذا قضيت بضعة أيام طريح الفراش، لا أستطيع ان اتذوق الموم أو الطعام أو الشراب. ولا أستطيع أن أفكر أو أقرأ أو أكتب. أو حتى أتفرج على التليفزيون، بكل ما فيه من برامج مسلية كانت أو مملة.

وقطعا لم أكن وحدي الذي عانى من هذا الفيروس الخبيث، لا في مصر، ولا في العالم بأسره. فقد قرأت، بعد أن استطعت أن أقرأ، أن قرابة نصف مليون شخص في اخر وحدها، تخلفوا عن أعمالهم أياما لإصابتهم بهذا المرض. فكم يكون عدد المرضى به في أنحاء العالم؟ طبعا بالملايين.. وكم تكون الخسارة في الإنتاج العالمي نتيجة هذا الوباء، الذي تسبب أصغر المخلوقات حجما وأشدها ضراوة، وأكثرها تمنعا عن العلاج والاستسلام لقدرات الأطباء وعلماء الفارماكولوجي!

وقيل إن السبب في هذا القصور عن علاجه، أن فيروس الانفلونزا ليس نوعا واحدا، ولكنه يبلغ بضع عشرات الألوف من الأنواع. فكيف يتتبع العلماء كل هذا العدد من المخلوقات، ويضعون لكل صنف منها علاجا؟

وقد سافر الإنسان إلى القمر، وأرسل مراكب الفضاء إلى زحل والمريخ وغيرهما. واستطاع عقله الجبار أن يتقل لنا مباريات كرة القدم، من أمريكا الجنوبية إلى مختلف أنحاء الأرض، تشاهدها الملايين ملونة على شاشة صغيرة تضعها أمامك في غرفة النوم، أو في أي مكان آخر، كما استطاع هذا الإنسان العجيب أن يخترع ويبتكر الآلاف من المبتكرات التي لو صحت الأجيال السابقة من موتها ورأتها لأصيبت بالجنون، واعتبرتها من خوارق المعجزات التي لا يتقبلها العقل ولا يصدقها. ومع ذلك، فقد وقف الإنسان العظيم أمام فيروس الانفلونزا الضئيل، ساكنا لا يستطيع دفع هجماته ومقاومته. وهكذا تشاء حكمة الله أن تذكرنا بأننا لم نبلغ السيادة المطلقة على الكون العجيب الذي نعيش فيه، وأننا مهما تقدمنا وابتكرنا واخترعنا، فلا يزال أمامنا الكثير في عالم المجهول، نقف أمامه مكتوفي الأيدي.

الحب للجميع

ليس الحب مقصورا على عاطفة الرجل نحو المرأة، أو عاطفة المرأة نحو الرجل، أو الوالدين نحو الأبناء، أو الأبناء نحو الوالدين، أو الناس بعضهم نحو بعض بوجه عام. فالرجل أو المرأة قد يحب الكلاب أو القطط أو أسماك الزينة أو العصافير، وأحيانا يهيم البعض بالقردة أو النسانيس أو السلاحف. كما يحبون البحر والجبل والصحراء والشجر والشمس والقمر.

وما زلت أذكر منذ أكثر من أربعين عاما، أن صديق الدكتور عبد الحميد يونس، رائد الأدب الشعبي كان يسكن في منزل أقضي فيه معه معظم أوقاتي. وكان له جار عرفنا أنه موظف بمديرية التعاون، ولا نعرف من أين كان يأتي بها ويربيها ويحنو عليها في منزله. كان يجلع أنيابها التي تنفث السم، ثم يهيئ لها مكانا للنوم، وطعاما وشرابا، ويلاعبها ويداعبها، ويخشى أن يختلط عليه الأمر فلا يفرق بين أحدها والآخر، لهذا كان يربط في كل ثعبان خيطا تتدلى منه ورقة، كتب عليها رقما معينا، وهكذا كان يفرق بينها بأرقامها.

وذات يوم، دق جرس الباب في مسكن الصديق الدكتور يونس، وعندما فتح ليسأل من الطارق، وجده صاحبنا الجار الذي يهوى تربية الثعابين. وحياه الجار، ثم سأله في أدب: ألم يأت عندكم الثعبان رقم ٢٦؟.

وكان لنا في ذلك العهد صديق شاعر صعلوك، يقضي النهار هائما على وجهه في أي مكان، ثم يأوي في الليل إلى حجرة يتقاسمها مع أحد أصدقائه. ثم بدا لصاحبنا الشاعر أن يزور حديقة الحيوان، فتجول بين ربوعها يتفرج على ما فيها من حيوانات وجداول ماء وشجر. وكان يفيض بالعواطف الحياشة، ويحب الكون كله. ولكنه في تجواله بحديقة الحيوان، لم يدق قلبه بالحب إلا لشجرة أعجبه جمالها فصار يجلس مجوارها كل يوم يناجيها وينظم فيها الشعر. فإذا عاد في المساء، أخذ يحدث صديقه عنها، ويطيل الحديث، كالعاشق الولهان، مما جعل صديقه يشتاق إلى رؤية هذه الشجرة المحبوبة الفاتنة. وطلب منه أن يريه إياها. وفي الصباح ذهب الاثنان إلى حديقة الحيوان، وجلسا تحت الشجرة يتغنيان بجمالها.

ومرت أيام. وذهب صاحبنا الشاعر إلى الحديقة يزور حبيبته الشجرة كعادته كل يوم، فإذا به يفاجأ بصديقه وشريكه في حجرته، يجلس بجانب الشجرة إياها، فأكان منه إلا أن انقض عليه قابضا على رقبته صائحا، ضبطتك يا خائن!..